تنشر اخبارها واغانيها من الساعة الثامنة مساء حتى العاشرة او بعدها. وكثيراً ما وافق ذلك ، في الفندق ، حركة ذهاب وايابٍ غريبة بسبب قدوم الزبائن من المطعم واحداً واحداً او خروجهم للسهر في المسارح وبيوت السينما . فكان كلما قدم زبون وكبس على زر المصعد سمعتُ في آلتي ، عوضاً عن الكلام العذب والاصوات الشجية ، صريراً وصفيراً يدومان الى ان يصل المصعد الى اعلى السلّم . ثم تعود الضجة عندما يكبس الزبون على الزر ثانيةً ، من اعلى ، ليُعيد المصعد الى اسفل اللولب . وسبب تلك الضوضاء الشرارات النارية التي تولد من الفحم ، في بعض المحركات الكهربائية ، فاذا تطايرت بعثت في الفضاء نوعاً من التموجات الهرتزية المضرة—وقد سميناها بالدخيلة—فدخلت على المركز القابل فاعلةً مفعولها . وكنت اسمع الضجة نفسها عندما يمر في الشارع الترامواي الكهربائي بسبب الشرارة التي تُقدح احياناً بين البكرة والسلك الذي تحتك به.

كلّ ذلك مزعجٌ للجالس امام آلة يتّبع خطاباً ، او يسمع الحاناً ، غير ان تلك التموجات الدخيلة قليلة في المدن الكبرى قرب مراكز النشر ، وفي ذلك لمحبي اللاسلكية تعزية وافرة . . . (للبحث صلة)

تنازع الاسقفية في انطاكية (٣٦٢-٣٩٢)

بقلم الاب غوشاف نيرون استاذ الفلسفة في كلية القديس يوسف

٢

وفي سنة ٣٧٩ مات القديس باسيليوس، وكان قد سبقهُ الى القبر بايام قليلة ڤالنتا ، الذي خلَف على العرش ثاوضوسيوس فكانت احوال الشرق موشكة ان تدخل في طور جديد ، اذ ان الامبراطور الجديد ، وهو المثال الحي للملك المسيحي ، مال بكليته الى معتقد نيقية . فقضى من ثمَّ على الاضطهاد الاريوسي وآن للكنيسة ان تتنفس الصعداء . وبعد مضي يومين من دخول ثاوضوسيوس الى القسطنطينية ، نُزعت كنائس المدينة من ايدي الاريوسيين ،

وارجعت للكاثوليك . واخذوا بعدئذٍ يهتمون التمام مجمع عام غايته الاولى اشهار ايمان نيقية احتفالياً ، وحسم المخاصمات الاريوسية حسماً نهائياً . فعقد سنة ٣٨١ وهو اول مجمع قسطنطيني . اما حق الترؤس فيه فكان بلا جدال للقديس ملاتيوس ، اذ كان هو الاسقف الاكثر شهرة في الشرق كله . بيد انهُ لم يُدرهُ طويلاً اذ وافاهُ الموت بعد ايام قلائل .

فهذا الحادث الذي لم يكن في حساب احد ، فتح السبيل الى حلٍّ مرضيٍ لمشكل شقاق انطاكية . وبما انهُ لم يبقَ من الاسقفين الّا واحد فقط ، كان على أتباع ملاتيوس ان يقبلوا بولينوس خلفاً لهُ وهكذا يتلاشى الشقاق . وذاك كان الحل الذي نادت بهِ رومية

***

كانت تلك الفكرة الحكيمة بعينها . غير ان الخواطر لم تكن بعد مهيأة لقبولها ، لأنَّ الاحبار الشرقيين الملتئمين للمجمع كانوا يرون في بولينوس عدوَّ الامس ، ودخيلاً يحاربونه منذ عشرين سنة . فلكي يقبلوه كان لا بد لهم من تضحية عظيمة وكفر بالذات . ولذا بذل رئيس المجمع الجديد ، القديس غريغوريوس النازيانزي اسقف القسطنطينية ، كل جهده لانجاح هذا المسعى . ولكنه لم يتوفق لانه كان ينقصه ما تقتضيه ادارة مجمعٍ ذي اهواء مختلفة ولاسيما في مثل هذه الآونة العصيبة .

لقد قال حقائق مفيدة لهؤلاء الاحبار الشرقيين ، الذين كانوا بالامس متقلبين امام اولي السلطان ، وهم اليوم مملوؤن ضغائن .. ولقد حمل خصوصاً على قلة تفقههم بالغرب ، منتقداً ، بتهكم قارص ، نظرهم الغريب للايمان بعين تتغير فيها الحقيقة مع تغير الامكنة . بيد ان هذه الحدة في اقواله لم تكن واسطة مفيدة لاكتساب العقول واستمالتها الى آرائه ، ولذا لم يُعبأ بتقريعاتهِ ولا ببراهينه .

وفي اثناء ذلك وصل الاسقف تيموتاوس الاسكندري الذي قد يكون قادماً لنصرة غريغوريوس . غير ان هذا الاخير كان مريباً ليس فقط عند انصار ملاتيوس لشدة ميله الى الغرب ، بل عند تيموتاوس ايضاً . فان اسقف

الاسكندرية رفع اعتراضات قانونية على انتخاب غريغوريوس لكرسي القسطنطينية . اما هذا فبلغت السآمة منه مبلغها فتنحى عن كرسيه وعن تروس المجمع ، وانزوى في الخلوة قاضياً حياته بين جميل الاشعار ينظمها في زوال الاشياء العالمية ، وسعادة الحياة التي تقضى كلها في سبيل الله . وفي اثناء ذلك اقام المجمع الكاهن فلابيانوس خلفاً لملاتيوس .

* * *

كان ذلك الانتخاب غاية ما يتمنى . فان المنتخَب الجديد هو احد اولئك الذين كانوا ، منذ ثلاثين سنة ، يصرفون الهمة الكبرى لتوطيد الايمان الكاثوليكي في انطاكية ، مزدرين بجميع الدسائس التي نصبتها لهم المرطقة . غير ان الشقاق الذي ظهر هنيهة قريب الاضمحلال ، لم يزل راسخ القدم . وانهُ يُخشى بسبب عدم اتباع مشورة رومية ان يقع خلاف جديد مع الغرب .

اما بولينوس فانه ، بعد ان اعترض على الانتخاب ، توجه الى رومية ليدافع بنفسه عن دعواه فاحدثت فضيلته الكبيرة تأثيراً حسناً وكان ايرونيموس قد غدا كاتم اسرار البابا داماسيوس فلم يتوانَ عن مناصرته حتى اعترفت رومية انه الاسقف الشرعي الوحيد لانطاكية . وهكذا كلما كانوا يزدادون سيراً ، كانت الصعوبات تزداد تعقيداً . اما فلابيانوس الذي انتخب بطريقة قانونية جداً في مجمع كثير العدد ، متحد مع رومية فكان لهُ ان يقول : انهُ ان لم يعترف به الرومانيون فذلك ناجم عن محض سوء تفاهم . غير ان بولينوس من جهة اخرى ، كان لهُ ان يجيب ان انتخابه مهما كان من امر صحته الاولى فانه غدا صحيحاً منذ اعترف به رئيس الكنيسة .

وفي سنة ٣٨٨ مات بولينوس . ولكن موته لم يضع حداً للشقاق . فقبل موته كان اتخذ خلفاً لهُ الكاهن ايفاجر فسامه اسقفاً . فلم تسلّم رومية بهذه السيامة بل دعت كلا المتنازعين لرفع دعواهما الى مجمع يتقضى بطريقة شرعية صاحب الحق . غير ان هذه الفتوى اعترضتها عقبات جديدة ، اذ ان فلابيانوس لم يكن ابن الجانب فيذعن لذلك . بل ابى الامتثال لثقته بان حقه اوضح من ان يرى نفسه مضطراً لمثل هذه المرافعة . فاحدث هذا الرفض في الغرب

تأثيرًا مؤلمًا مما دفع القديس امبروسيوس ، وهو في كرسيّه البعيد بميلان ، الى ان يثور من جرّاء ذلك زاعمًا ان اسقف انطاكية وضع نفسه فوق الشرائع ، ووطد بعناده الانقسام في الكنيسة جمعاء. خلاصة القول ان الشرقيين والغربيين تعذّر عليهم جدًا ان ينظروا الى الامور نظرًا واحدًا . اخيرًا انتهى المشكل بموت ايفاجر دون ان يسمّي خلفًا لهُ . وبعد ايام قلائل ثُبّتت رومية فلابيانوس حينئذٍ لم يطق الشقاق الثبوت طويلًا ، فان الاتحاد آن لهُ ان يتوطد في كنيسة انطاكية . وامست الاضطرابات التي ادخلها الانقسام قريبة ان تتلاشى . اجل لقد آن الاوان ! فان موضوع الخلاف قد تلاشى الآن او كاد ، ولم يبق مجال الّا لبعض منافسات حقيرة شخصية . اين لنا ان نسمع القديس الذهبي الفم ، وهو كاهن شاب بعد منتظم لاكليروس ملاتيوس ، يسم بسهم كلامه الحادّ تلك الخسائس والدسائس المستوتة التي مازجت هذه المنازعات .

فان التحزبات العالمية قد مثّلت فيها دورها . فكنت ترى سيدات انطاكية الشريفات ينحزبن ، بعضهن لفلابيانوس ، وبعضهن لبوليتوس ، مدفوعات باغراض لم يكن للمسائل اللاهوتية ادنى علاقة بها . وقد اتفق اكثر من مرة ان من ارتكب خطيئة ، رجلًا كان او امرأة ، يعمد الى التملّص من التكفير عنها مهددًا بانه ينضوي الى الحزب الآخر . فلم يطق ذلك الخطيب ان يرى الرسوم الكنسية آئلة الى هذا الانحلال واذا به يهتف : « ليذهبن لا يرجعن وليبقين معهم .... اني اتألم من جراء ذلك كما لو قطع احد اعضائي ، بيد انني اتألم اكثر اذا الجاني اتقاء هذا الالم الى اهمال واجباتي » .

فهذه الحالة كانت قريبة الزوال لحسن الطالع . غير انه بقي بعض العقبات التي لا بد من تذليلها للبلوغ الى السلام التام ، فالاكليروس الافسطاتي ، مع انه لا رئيس له ، لم يرضَ بالامتثال . على انه يجب الاقرار بان سلوك فلابيانوس على ما به من الاعتدال في مسائل اخرى ، لم يسهل السبيل الى ذلك . فانه كان يعتبر ان جميع اولئك الكهنة سامهم اساقفة غير شرعيين ، ولذلك ابى قبولهم في عدد اكليروسه الخاص . ومن ثم شعر الجميع بمسيس الحاجة للتراجع الى حكم اعلى تذعن لكلمته الاجزاب كلها . لقد نظرنا ان رومية في اثناء

هذه المخاصمات لم يبادر كثيراً الى تلبية صوتها . غير ان من لاحظ عراقيل هذا الموقف المتشابكة ، وما كانت عليه رومية من بُعد المسافة ، والصعوبة في الاستقصاء عن كل شيء ، فهم جيداً لماذا صادفت التدابير التي اشارت بها مقاومة لم تصدر عن نية سيئة .

على انه اذا قضى الامر اخيراً بالنزوع الى السلام فلرومية وحدها الحقّ ان تفرض الفتوى العادلة الجزيلة العائدة التي توحّد جميع العقول . وهذا ما تم في ايام الكسندروس ، ثاني خلف لفلابيانوس .

منذ بلغ البابا اينوشنسيوس خبر تسقيف هذا ، اعلن انه مستعد للاقرار بالمنتخَب الجديد بشرط ان يقبل الكهنة الافسطاتيين في عداد اكليروسه ، ويجري الاتفاق الذي طال انتظاره . فللحال اخذ الكسندروس في العمل وفي سنة ٤١٥ شهدت انطاكية مهرجاناً لا تنساه ، مهرجاناً كما يقول ثاودوريطس الشاهد العياني ، لم يرَ نظيره احد قط . فلنسمعه يصفه لنا : «ان الكسندروس سار في مقدمة شعبه من اكليريكيين وعلمانيين متوجهاً الى مجمع الافسطاتيين فجعلهم في موكبه . فعلت اذ ذاك الترانيم وانشدت الاناشيد باتحاد الاصوات من الباب الغربي الى الكنيسة الكبرى . وان ساحة المدينة الفسيحة كانت غاصة بالرجال فكنت ترى نهراً من الناس ينساب على جانب نهر العاصي .

« فاليهود ، والاريوسيون ، والقليلون من الوثنيين الباقون في انطاكية ، كانوا امام هذا المشهد يتنهدون ويعولون . اما سائر الانهار فأتت على تلك الصورة تنصبّ في اوقيانوس الكنيسة .»

* * *

في نهاية قصة هذا الخصام الطويل جداً والذي قد نكون اسهبنا في سرده تتبادر بديهياً الى الذهن بعض اعتبارات . فاننا نرى اولاً ان التفاهم قد تعذّر على الانام الصلّاح في كل عصر . واغرب من ذلك تعذره على صميم المؤمنين ابناء الكنيسة الواحدة المقدسة الكاثوليكية . فسيدنا يسوع المسيح في صلاته الاخيرة طلب الى ابيه نعمة الوحدة كسمة خصوصية لتلاميذه الحقيقيين

« ليكونوا باجمعهم واحداً كما نحن واحد .. حتى يؤمن العالم انك انت ارسلتني »

غير انه لم يشأ ان تحفظ هذه الهبة الالهية ، هبة الوحدة ، من غير جهاد؛ ولهذا لم ينزع من كنيسته اختلاف الاصل والمشرب ، ولا تناقض الاخلاق ؛ وكثيراً ما سمح بظروف مؤلمة جرّت الى الخصام في قلب الجماعة المسيحية نفسها ، في من هم اشد الناس استقامة نية.

فلا تعجبنّ اذاً ولا نيأسن ؛ اذا ما رأينا في ايامنا ايضاً عبّاد مسيح واحد وتلاميذ ايمان واحد مختلفي الاصل والتربية ، واحياناً ذوي آراء متناقضة ، يتعذّر عليهم ان يتفقوا حتى تجاه العدوّ المشترك. فان العقبات التي تعترضنا قد اعترضت آباءنا من قبلنا.

لكن لنضف حالاً انهم ايضاً بيّنوا لنا بمثلهم ، السبل لتذليلها . ولعل الطرفين لم يسلما من الخطأ ومن بعض انفعالات قوية جداً ، وتشبّث مفرط بآرائهم. بيد انهم باجمعهم يعطوننا مثال محبة الوحدة. اجل انهم جميعاً يتعشقون حقاً وحدة الكنيسة ، ولم تحدثهم نفسهم قط بالبقاء منقسمين حتى انه بعد ساعات الغيظ التي تبودل فيها بين شرقيين وغربيين اقوال حادة ، كنت تراهم يسعون وراء التقرّب ، ويكثرون من الايضاحات ، واحياناً يحملهم حبهم للاتفاق على ترك ما كانوا يؤيدونه من قبل

اخيراً كلهم علموا ان مركز هذه الوحدة هو رومية . انهم تلكأوا احياناً — وهذا طبيعي في البشر — عن اتباع احكامها حينما كانت هذه الاحكام تناقض آراءهم الخصوصيّة . بيد انه لم تحدثهم نفوسهم قط بالتصرف في الامور دون معاضدة رومية وقبل اعرابها لهم عن رضاها . وعلى هذه الصورة امكنهم ان يتملصوا من هذا المأزق الكلي الحرَج . فان كان هذا الخلاف الذي طال امده قد انتهى اخيراً بفوز باهر للكنيسة ، واعلان ساطع لوحدتها الجميلة ، فذلك لان هذه الوحدة ، التي احتجبت هنيهة عن العيان ، بقيت دوماً حيّة في قلوب بنيها.